

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَقْضُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)) . [يوسف : ٦٩ - ٧٥] .

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) شروع في بيان ما دار بين يوسف عليه السلام وبين شقيقه «بنيامين» بعد أن حضر مع إخوته.

وقوله (آوى) من الإيواء بمعنى الضم .

وقوله (فَلَا تَبْتَئِسْ) افتعال من البؤس وهو الشدة والضر.

والمعنى : وحين دخل إخوة يوسف عليه، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه وقال له مطمئناً ومواسياً: إني أنا أخوك الشقيق، فلا تحزن بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى، فإن الله تعالى قد عوض صبرنا خيراً، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه.

• قال ابن كثير : ... واختلى بأخيه فأطلععه على شأنه وما جرى له وقال: «لا تبتئس» أي : لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان هذا عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلععه عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معزراً مكرماً معظماً .

• قال الرازي : قوله (إِنِّي أَنَا أَخُوكَ) فيه قولان : قال وهب : لم يرد أنه أخوه من النسب ، ولكن أراد به إني أقوم لك مقام أخيك في الإيناس لئلا تستوحش بالتفرد.

والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب ، لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأُنس ، ولأن الأصل في الكلام الحقيقة ، فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة.

(فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ) أي : ولما قضى حاجتهم وحمل إبلهم بالطعام والميرة .

(جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ) أي : وحين أعطى يوسف إخوته ما هم في حاجة إليه من زاد وطعام، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا الصواع في متاع أخيه «بنيامين» دون أن يشعر بهم أحد .

• السقاية: إناء كان الملك يشرب فيه، وعادة ما يكون من معدن نفيس ولقد كان يوسف عليه السلام يكتال به في ذلك الوقت نظراً لقلّة الطعام وندرته ، وهذه السقاية هي التي أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع .

• قال ابن كثير : (السقاية) وهي: إناء من فضة في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب -قاله ابن زيد- كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك .

• وقال ابن عطية : (السقاية) الإناء الذي به يشرب الملك وبه كان يكيل الطعام للناس، هكذا نص جمهور المفسرين ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك وابن زيد.

(ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) أي : ثم نادى مناد على إخوة يوسف عليه السلام وهم يتجهزون للسفر، أو وهم منطلقون إلى بلادهم بقوله: يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصل في شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة.

• والمراد بالمؤذن هنا: المنادى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به. والمراد بالغير هنا: أصحابها .

• **قال الماوردي :** فإن قيل : كيف استجاز يوسف أن يجعل السقاية في رحل أخيه لسرقهم وهم برآء ، وهذه معصية؟ قيل عن هذه أربعة أجوبة :

أحدها : أنها معصية فعلها الكيال ولم يأمر بها يوسف .

الثاني : أن المنادي الذي كال حين فقد السقاية ظن أنهم سرقوها ولم يعلم بما فعله يوسف ، فلم يكن عاصياً .

الثالث : أن النداء كان بأمر يوسف ، وعنى بذلك سرقتهم ليوسف من أبيه ، وذلك صدق .

• **قال الألوسي :** والذي يظهر أن ما فعله يوسف ، من جعله السقاية في رحل أخيه . ومن اتهمه لإخوته بالسرقة .. إنما كان بوحى من الله تعالى لما علم سبحانه في ذلك من الصلاح ، ولما أراد من امتحانهم بذلك . ويؤيده قوله تعالى (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) .

• **قال ابن عطية :** ... هذا من الكيد الذي يسره الله ليوسف عليه السلام ، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يستعبد السارق ، وكان في دين مصر أن يضرب ويضعف عليه الغرم ، فعلم يوسف أن إخوته - لثقتهم ببراءة ساحتهم - سيدعون في السرقة إلى حكمهم ؛ فتحيل لذلك ، واستسهل الأمر - على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة وإدخالهم على يعقوب عليه السلام ، وعليهم - لما علم في ذلك من الصلاح في الأجل ، وبوحى لا محالة وإرادة من الله محنتهم بذلك ، - هذا تأويل قوم ، ويقويه . قوله تعالى (كذلك كدنا ليوسف) .

وقيل : إنما أوحى إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط ، ثم إن حافظها فقدھا ، فنادى على ما ظهر إليه - ورجحه الطبري ؛ وتفتيش الأوعية يرد عليه .

وقيل : إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا ، وإنه عوقب على ذلك بأن قالوا : " فقد سرق أخ له من قبل " (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ) أي : قال إخوة يوسف بدهشة وفرح لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون ، قالوا لهم : ماذا تفقدون - أيها الناس - من أشياء حتى اهتممونا بأننا سارقون!!!

• **قال الخازن :** ... ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الأقرب إلى ظاهر الحال لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم

(قَالُوا) رد عليهم المؤذن ومن معه من حراس

(نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ) قَالُوا : نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ أي : صاعه الذي يشرب فيه ، ويكتال به للممتارين .

(وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ) أي : بهذا الصاع ، أو دل على سارقه .

(جِئْتُ بِعِيرٍ) من الطعام زيادة على حقه كمكافأة له .

• **قال القرطبي :** البعير هنا الجمل في قول أكثر المفسرين .

(وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) وأنا بهذا الحمل كفييل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك .

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) أي : قال إخوة يوسف للمنادي ومن معه الذين اتهموهم بالسرقة : تالله يا قوم ، لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم ، لكي نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق ، وما كنا في يوم من الأيام ونحن في أرضكم لنرتكب هذه الجريمة ، لأنها تضرنا ولا تنفعنا ، حيث إننا في حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام ، والسرقة تحول بيننا وبين ذلك ، لأنكم بسببها ستمنعوننا من دخول أرضكم ، وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا .

• **قال الماوردي :** قوله تعالى (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ) أي : لنسرق ، لأن السرقة من الفساد في

الأرض ، وإنما قالوا ذلك لهم لأنهم قد كانوا عرفوهم بالصلاح والعفاف. وقيل لأنهم ردّوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ، ومن يؤد الأمانة في غائب لا يقدم على سرقة مال حاضر.

(قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ) أي : قال المنادى وأعوانه لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة السرقة نفيا تاما. إذا فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك في شريعتكم، إن وجدنا هذا الصواع في حوزتكم، وكنتم كاذبين في دعواكم أنكم ما كنتم سارقين.

(قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) أي : قال إخوة يوسف: جزاء هذا السارق الذي يوجد صواع الملك في رحله ومتاعه أن يسترق لمدة سنة، هذا هو جزاؤه في شريعتنا.

• قال الشوكاني : ... جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد في رحله -أي استرقاقه لمدة سنة- وتكون جملة «فهو جزاؤه» لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها. قال الزجاج وقوله «فهو جزاؤه» زيادة في البيان. أي: جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير». وقالوا «جزاؤه من وجد في رحله» ولم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقة، للإشارة إلى كمال نزاهتهم، وبراءة ساحتهم من السرقة، حتى لكان ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها في هذا المقام.

(كَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ) أي : مثل هذا الجزاء العادل، وهو الاسترقاق لمدة سنة، نجزي الظالمين الذين يعتدون على أموال غيرهم.

• قال القرطبي : أَيْ كَذَلِكَ نَفْعَلُ فِي الظَّالِمِينَ إِذَا سَرَقُوا أَنْ يُسْتَرْقُوا، وَكَانَ هَذَا مِنْ دِينِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحُكْمِهِ. وَقَوْلُهُمْ هَذَا قَوْلٌ مَنْ لَمْ يَسْتَرْبِ نَفْسَهُ، لِأَنَّهُمْ التَّزَمُوا اسْتِرْقَاقَ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ، وَكَانَ حُكْمُ السَّارِقِ عِنْدَ أَهْلِ مِصْرَ أَنْ يَغْرَمَ ضِعْفِي مَا أَخَذَ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا.

• وقال السمرقندي : وكان الحكم في أرض مصر للسارق: الضرب والتضمين، وكان الحكم بأرض كنعان: أنهم يأخذون السارق ويسترقونه، ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم .

الفوائد

١- في التأسّي مسلاة .

٢- وجوب نصرّة الأخ الضعيف والشد من أزره .

٣- جواز الحيلة للمصلحة .

قال القرطبي : جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل ، إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلاً .

قال السعدي : فيه جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

٤- البريء واثق من نفسه ، جريء في قوله وتصرفه .

٥- حسن تدبير يوسف للإبقاء على أخيه معه .

٦- مشروعية الكفالة .

٧- جواز الحلف للحاجة أو لإثبات البراءة .

٨- السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض .